هزيمة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب شكري محمد عياد

— عبد الكريم !

فأجاب الرجل مضطرباً :

— نعم ياسيدى

— ماذا جاء بك ؟

فلمس الرجل لبدته السوداء الطويلة مرتبكاً ، وقال متلعثماً :

— لا شيء ياسيدي ... إنما أتنزه قليلاً

— أنت كاذب ! لقد أرسلوك هذه المرة أيضاً . اذهب فقل لهم إنى لست بمجنون ! وإذا رأيتك بعد اليوم فسوف أقتلك قتلا

— سيدي ... سيدي ... سيدي حضرة العمدة أمرنى

— قلت لك اذهب . إنهم يفرضون علىّ الرقابة كأنى حقاً مجنون ! لم يبق إلا أن يسير ورائى كلما خرجت من باب البيت خفير !

فابتعد الرجل وجلاً وعلامته الصفراء تلمع فى ظلام الليل المغطش . وتابع صبرى السير وشفتاه مازالتا ترتعدان من الغضب . لقد أصبح البقاء هنا لا يحتمل . فهم جميعاً يعاملونه كأنما هو مجنون . أبوه ، أمه ، إخوته ، كلهم ينظرون إليه مشفقين ، متحسرين ، خائفين أحياناً ! لا يكاد يغضب أو يثور حتى تبكى أمه ، ويضرع أبوه إلى الله أن يلطف به ، ويهرب منه إخوته ؛ ويظل البيت باكياً ضارعاً وجلاً حتى يهدأ . والرجال جميعاً غدوا لا يعاملونه إلا بحذر ؛ حتى نساء البلدة يكاد يسمعهن يقلن : « مى صبرى ابن العمدة حصل له لطف ! » كلا . إن هذا أكثر مما يطيق . إن هذا وحده كاف لأن يذهب بأرسخ العقول . وإنه ليسائل نفسه أحياناً : « أصحيح مايرى ويسمع ؟! هل هو حقاً مجنون ؟! » كلا . إنه أدرى بنفسه من كل هؤلاء . لاشك أنه ضعيف الأعصاب ، ولكن ليس معنى هذا أنه مجنون ! حسبه أن يقوم بالليل فيغني أو يصلى ، وأن يبكي ويتشنج لأقل سبب ، لسماع غناء أو لزيارة غير منتظرة . وهو أحياناً يكون غريب الأحوال وحشىّ الضحكات ، كئيباً لغير داع ، أو مسروراً بغير علة . ولكن ذلك لم يبلغ بعد حد الجنون ! إنما هو ضعف فى الأعصاب لا يحسن الذين هنا أن يعالجوه . لقد كان في القاهرة وهو غريب أحسن حالاً مما هو الآن بين أهله . كان هناك على الأقل صديقه « ابراهيم » ، وأعظم نعم الله على المكروب صديق يفهمه . وكان لا يحس فى الجو المحيط به هذه الكآبة وهذا التعبيس . وكان يذهب ويجيء حراً طليقاً ، لا يحاسبه أحد على مايقول أو يفعل . أما هنا فهم لا يكادون يتركونه لحظة يخلو فيها إلى نفسه ، ويذكر ما أصابه تلك السنين الطويلة من يأس وخذلان . لقد كانت له آمال وأمانى كبار . كان يرجو الحياة السعيدة بالحب والمجد والمال ،

وذلك الشيء الذى طالما بحث عنه ، ذلك الشيء الذى لا يستطيع أن يسميه ، لأنه لا يستطيع أن يحده ، لأنه لا يستطيع أن يفهمه . ولكنه يحس برغم ذلك أنه خلق من أجله ، خلق ليبحث عنه ، خلق ليفنى فيه . وهو اليوم يقف فى ربيعه الخامس والعشرين على أطلال حياة محطمة بائسة . سنون كان ملؤها الكفاح والقوة والأمل ، فما عاد منها بغير اليأس والضعف والخذلان . أىّ حلم صدق ؟ أىّ غرض ثـقِف ؟ أىّ أمل حقّق ؟ لا شيء ! لا شيء غير الخيبة فى كل ما أمله ورجاه . خاب فى الحب حين أحب ، وخاب فى المجد حين طمح ، وخاب فى الحياة كلها حين اضطرب فى الحياة كلها . ولم يفد من كل ما كافح وناضل وأمل غير نفس مظلمة وأعصاب واهية وقلب مرير . ليته ما كافح ولا ناضل ولا أمل ! إذاً لما عرف الضيق ولا اليأس ولا الخيبة : إذن لعاش كما يعيش كل الناس ، ولسعد كما يسعد كل الناس ، ولضحك وعبث كما يضحك ويعبث كل الناس . لقد أسرف فى الأمل ، فأسرف عليه اليأس . وارتد قلبه جاحداً بعد شكران كافراً بعد إيمان

وأحس كأنما ضايقت الأفكار السود أنفاسه ، فهز رأسه فى عنف وضيق كأنه يطرد عنه أشباح فكره ؛ وأرسل عينيه فى المروج المخضرة حوله ، كأنه يستهويها ويلهيها . كان الليل قد بسط على الكون جناحيه ، وكانت النجوم تلمع فى سماء الصيف الرائعة ، والنسيم يهب رخياً ندياً ، نسيم أمسية من أماسىّ الصيف . وكانت العصافير تسقسق على الأشجار المنتثرة حواليه ، سقسقتها الواحدة التى لا تنتهي . هـذه الطبيعة قد تبدو جميلة أحياناً ، ولكنها لا تستطيع أن تهبه بعض ما ينزع إليه فؤاده . هى لا تكاد تغير نغمتها الواحدة أو تعزف على غير وترها الفريد . هي الأخرى لا تستطيع أن تملأ قلبه ، أو تشعره بمعنى الحياة . لا شيء فى الدنيا يستطيع أن يشعره بمعنى الحياة . وأراد ثانية أن يذود الأفكار عن رأسه . ولكنه كان يحس كأنما هو مدفوع إليها دفعاً ؛ وكان النسيم الرخى يثير فى ذهنه ذكريات بعيدة . ورأى الجميزة التى شهدت غرامه الأول منذ تسع سنين . لقد كان إذ ذاك على بدء الطريق ، ورأى « منى » وهى يومئذ بارعة الحسن ساحرة الطرف رائعة الملامح ، وما كانت إلا قروية تملأ الجرة وتحمل الغداء إلى الحقل . ولكن عينيها الصافيتين الصادقتين كانتا تحملان معنى عميقاً بليغاً بعيداً . وكان وجهها الطلق السمح الصغير يبعث فى القلب لذة روحية لا تقوّم ، وينفى عن النفس الرجس والإثم والشك . فكانا يتقابلان عند هذه الجميزة كل يوم فيتحدثان فى أى شيء إلا الحب . ثم تركها خشية أن يتسامع بهما الناس ، ولكن قلبه ظل ممتلئاً بها ، آسياً عليها ، حافلاً بذكراها . وإنه ليذكر آخر لقاء لهما . لقد بكت يومها حتى بل الدمع ثيابها ، وبكى هو أيضاً ، بكى كثيراً . فقد مزق الفراق قلبيهما الصغيرين . ويومها فقط جرؤ على أن يقبلها ... فى وله ويأس وفى سيل من الدموع ...

وتزوجت « منى » بعد ذلك وأنجبت ولم يعد يراها إلا قليلاً . ولكن ذكرى غرامه الأول بقيت محفورة فى قلبه طوال تلك السنين : ساذجة صادقة خالصة صافية كقلب مُنى . ولقد أحب بعد منى وتفلسف فى حبه ، ولكنه سوف يذكر أبداً

تلك القبلات الواهية الخجلى ، وذلك الوجه الملائكى الجميل ، كمصباح في ضباب كثيف لا يستطيع أن يبدد من ظلمته شيئاً . وساءل نفسه هل عرف الحب حقاً بعد مُني ؟ إنه يذكر الكثيرات اللائى أحب وأزجى إليهن قلبه الحائر الشاعر المتلمس . كلهن عبثن به حيناً وتركنه ، ولم يعرف قلباً أصدق حباً ولا أخلص وداً من قلب مناه الصغيرة ... حتى عائدة التي كان يخيل إليه أنها غير من رأى وعرف ، أنها النور الذى أضاء لقلبه السادر ، أنها الملاك المبعوث رحمة للبشر ؛ كان يخيل إليه أنها تستطيع أن تبعثه مرة أخرى ، أن تنفخ فى روحه الأمل ، أن تملأ قلبه بالحياة وبالحب ، فطاولها وطاولته ، حتى ملها ويئس منها ، وملته ويئست منه ، وانصرفت عنه إلى فتى أملس الجلد مذهب الحاشية مخنث الشمائل . ولم يجرب بعدها أن يحب ، ولم يمل به قلبه إلى حب ، فقد يئس من كل شيء وتبدلت نظرته إلى الحياة ، ولم يفد من حبه غير الضيق والتشاؤم واضطراب الأعصاب . وقيل له إن فى العمل سلوة المهموم والمحزون والشاكى ، فانصرف إليه بكل ما فى قلبه اليائس من قوة حتى نال متفوقاً إجازة الآداب ووقف حائراً يفكر ماذا يفعل . أبوه يريد له شرف الوظيفة والعمل الحكومى ، وهو لا يجد من نفسه القدرة على احتمال ما تمليه الوظيفة من مهانة وضعة . وكاد الأمر يؤدى إلى نزاع بينه وبين أبيه ، لولا أن خضع صبرى ، وترك أباه يدأب ويسعى ، يطرق باب كل مظنة للجاه أو للنفوذ أو للمنصب ، حتى استطاع أن يكسب له وظيفة بثمانية جنيهات ونصف ، وعاد يحسب نفسه فائزاً مجدوداً . وتسلم صبرى مهام وظيفته غير متوقع نجاحاً أو بقاء فيها ، فقد قال له رئيسه وهو يشرح له سير العمل : « إن شبان هذه الأيام لا تعجبهم أساليبنا فى العمل ، وكأنهم يظنون أنهم ما داموا قد تعلموا فى المدارس العالية ، فمن حقهم أن ينتقدوا رؤساءهم الذين عرفوا سير الدولاب الحكومى قبل أن يعرفوا هم نور الحياة » . وكان ورود صبرى إلى الديوان محل همس ولغط بين الزملاء فكانوا ينظرون فيما يكتب باهتمام ويبتسمون حين يرون تخبط هذا الشاب المثقف خريج الجامعة ! وأراد رئيسه أن يملى عليه إرادته فصادف منه عوداً لا يلين ؛ واتصل النزاع بينهما ، فراح زملاؤه يبدون أمامه إعجابهم بشجاعته ، ويتعجبون أمام الرئيس من جرأته ووقاحته . ولم يكن من دأب صبرى أن ينافق أو يكذب ، ولا كان فى مقدوره احتمال ذلك ، فحنق على كل شيء حتى على أبيه الذى ألقى به فى ذلك المحيط القذر . وضج به الضيق حتى هان عليه تقديم استقالته وإن أغضب بذلك أهله وأباه

وعاد إلى القرية فرأى وجوهاً ملتوية وأنوفاً زافرة وألسنة لا تكف عن ذكر خيبته وضيعته . فلم يطل به المقام وارتد إلى القاهرة يبتغي الرزق من طريق الصحافة . وكان رأيه أن الصحافة مرشدة الجمهور ومثقفته بالصدق والاستقلال والاخلاص ، فرآها إما لسان حزب أو أداة حكومة أو بوق مهرج . ورأى وسيلة النجاح فيها كوسيلة النجاح فى الحياة بأسرها : خداع ونفاق وكذب . وإنه ليذكر كلمة قالها له زميل من كبار محررى الصحف : « ليس من الضرورى مطلقاً أن أثق بصحة الشيء لأحبذه ، ولا أن أومن بقدرة هذا الرجل أو ذاك لأمدحه وأشيد بصفاته ؛ إنما العبرة بما أفيده أنا

وتفيده الجريدة من ذلك كله . ولقد أكون اليوم من أنصار هذا الحزب ، إذا أنا من أنصار ذلك الحزب الآخر . وليس فى هذا من بأس إذا أنا ربحت وإذا أنا استطعت — من أى طريق — أن أصحح موقفى فى عيون الناس .. » ولم يستطع صبري أن يروض نفسه على هذا الاعتقاد الجديد ففكر فى الاشتغال بالأدب . وكان له غرام به واطلاع فيه ، فألف مجموعة أقاصيص أعلن عنها فى الصحف قليلاً ، وتحدث عنها النقاد قليلاً ، ثم مضت لم يعجب بها أحد ، ولم يسخط عليها أحد ، ولم تثر ذماً ولا استحساناً ولا مدحاً ولا قدحاً . ونوت فى رفوف المكاتب حتى نسج عليها العنكبوت من خيوطه أكفانا

وألقى السلاح قانطاً ، وعاد يفتش عن الوظيفة مرة أخرى

وظل منذ ذلك الحين يتردد بين القرية والقاهرة يطلب العمل هنا ويطلب الراحة هناك ، فلا يوفق إلى أيهما . واكتأب وامتلأ قلبه أسى وحزناً أن أن رأى الحياة خيبت كل ما أمله فيها ، ووهت أعصابه فنصح له أصدقاؤه أن يتسلى . وسألهم ما معنى السلوان ، فابتسموا وأرشدوه إلى دار امرأة من أولئك اللائى يتحملن خطايا البشر . وانزعج صبرى فما كان قد طرق هذا السبيل من قبل . اللهم إلا فى ظروف كآبة كانت تسلبه إرادته ثم تعقبه ندماً ؛ ولكن الصدمات المتوالية كانت قد ذللت قياده ، فبات من اليأس مستسلماً لكل علاج . وأقبل على هذه الحياة الجديدة يريد أن ينسى نفسه فى لذائذها ، فكان يظل كالمخمور حيناً ثم يفيق فكأنما قذف به من حالق ، ويحاول محاولة المستميت أن يطفو إلى السطح فتهى قواه ويغوص إلى الأعماق . وكان أشد ما يشقيه سرور مختلق وسعادة كاذبة وهوى رخيص

وتواردت على خاطره صور النساء اللائى عرف ، بوجوههن الشاحبة وعيونهن المتعبة ودلالهن المقيت . ولقد كانت تجمح به نفسه فيثور على كل شىء ثم لا يلبث أن يعود إليهن يحاول أن ينسى ، حتى مل هذه الحياة المضطربة فعاد إلى القرية منذ أسابيع ، يتلمس فيها ذكريات الصبا ، ويشتم منها روائح الطفولة ، ويلتمس فيها أثراً من « منى » . وبالأمس رآها سائرة تحمل الغداء لزوجها ، وما استطاع أن يتعرفها إلا بصعوبة ، فقد ترهلت واصفر لونها وغاض البشر من محياها ، وذوت فيها تلك النرجسة التى عرفها منذ سنين ، فعادت امرأة ككل نساء الريف . وكان يجرى فى أعقابها صبى قذر الملابس زرىّ الهيئة لا شك أنه ابنها . وحين رأته ظل وجهها جامداً كأنها لا تذكر من قديم أمرها شيئاً ، فخيل إليه أن ليس لها بمناه رابطة ولا صلة . وأين هذه من تلك ؟ إنه لو سمعها نوديت بهذا الاسم لأنكرها ، فليست « منى » لديه إلا ذلك الكائن السماوى البعيد ، بقى ساكناً هذا الجسد حيناً ثم مله واجتواه ، ولم يبق له منه غير ذكرى تعاوده الحين بعد الحين ...

وفيم بقاؤه هنا بعد ؟ أفليس من الخير له أن يذهب إلى صديقه إبراهيم يطلب الراحة فى البوح إليه بكل مايضنيه ويشقيه ؟ سيسافر فى الغد ، فهذا خير له ؛ وسيقابله صديقه بالبشر والترحاب كما ألف منه دائماً ، بوجهه الطلق السمح وقلبه الصادق الخالص ، ونفسه الراضية المطمئنة . وسوف يلقى إليه بكل أحزانه فيشاطره حملها بغير ضجر ولا ضيق ؛ ثم لعله يوفق بعد ذلك إلى عمل . أما البقاء هنا فليس يجديه شيئاً

وبدأت سحب اليأس تنجاب عن نفسه .

وعاوده الأمل وإحساس الراحة وهو آيب إلى المنزل . وكان البدر قد طلع وكلل بنوره هام الأشجار ، وانتظمت أشعة الشمس الأرض كلها ، فكست بالجمال كل ما عليها . حتى الأكواخ الصغيرة إلى جانبها حقول الذرة كانت تبدو « كعوامات » من فضة . وأحس صبرى كأن كل شيء حوله يرقص ويغنى . وامتلأ قلبه بالأمل على حين غرة كما امتلأ قبل باليأس . وبات تلك الليلة هادىء الأعصاب مطمئن النفس فصفا البيت معه واطمأن . وفى الصباح استأذن أباه فى السفر فأعطاه جنيهين ، وقال له : « ليس معي الآن غيرهذين . فإذا احتجت إلى شيء بعدهما فارسل إلى . وفقك الله يابنى وسدد خطاك ! »

وهبط صبرى إلى محطة القاهرة فى نحو الساعة العاشرة وقد بدأ يحس قلقاً مبهماً وتردداً ، أين يذهب ؟ أإلى شبرا حيث صديقه إبراهيم ، وحيث الأستاذ حسين حلمى الذى يعتمد عليه فى الحصول على وظيفة ؟ أم ..... ؟ وظل برهة حائراً . ثم نكس رأسه فى حزن ويأس ، واتجه صوب محطة (الأتوبيس) رقم ١٤ فركب إلى ميدان الاسماعيلية ، ومنه ركب (الأتوبيس) رقم ٦ إلى الجيزة . وسار قليلاً فى شارع سعد زغلول ، ثم عاج فى عدة أزقة ملتوية ، ووقف أمام بيت صغير لا يدل ظاهره على نعمة . وتردد قليلا ، ثم أقبل على الباب يطرقه . لن يذهب إلى شبرا بل سوف يبقى هنا ما واتاه الوقت والمال . وارتفع من الداخل صوت مألوف يسأله :

— « مين » ...

— إفتحى يا عزيزة ... أنا صبرى ...

شكرى محمد عياد

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

لأبى العلاء المعري

قصد أبو العلاء بهذا الكتاب الافادة والتعليم ، فتناول فيه عدة علوم ومعارف من شتى الفنون ، وتخير لذلك أجل مظهر وهو تمجيد الله وعظة الناس ؛ فحسب من لم ير الكتاب أنه انما ألفه ليجاري به القرآن الكريم أو يعارضه . ورتبه على فصول بعدد حروف الهجاء ؛ أما الغايات فهى خاتمة كل فقرة منه ، وهى عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وقد ظل هذا الكتاب مفقوداً هذا الدهر الطويل حتى انتهى إلى المرحوم تيمور باشا ، ووفق الله لضبطه بالشكل الكامل وشرح غريبه والتعليق عليه الأستاذ :

محمود حسن زناتى

أمين الخزانة التركية (سابقاً)

وطبعه على ورق جيد ، وتبلغ صفحاته ٤٩٤ ، ووضع به لوحتين بالفوتوغراف من النسخة الأصلية التى طبع منها وهى المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهو يطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ، ويباع فى جميع المكاتب الكبيرة

وثمنه ثلاثون قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد